البدر الطالع

بمحاسن من بعد القرن السابع

تأليف

القاضي العلامة محمد بن علي الشوكاني

المتوفى سنة ١٢٥٠هـ

ويليه

الملحق التابع للبدر الطالع

جمعه سنة ١٣٤٨هـ بالقاهرة السيد الحافظ المؤرخ

محمد بن محمد بن يحيى بن زبارة

الحسني اليمني الصنعاني

وضع حواشيه

خليل المنصور

الجزء الأول

منشورات

محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

٤٠ ـ أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن القاسم بن تيمية[(١)]: الحرَّاني الدمشقي الحنبلي تقي الدِّين أبو العباس شيخ الإسلام إمام الأئمة المجتهد المطلق.

ولد[(٢)] سنة ٦٦١ إحدى وستين وستمائة. وتحوّل به أبوه من حرّان سنة ٦٦٧ سبع وستين وستمائة، فسمع من ابن عبد الدايم، والقاسم الأربلي، والمسلم ابن علان، وابن أبي نمر، والفخر ومن آخرين.

قال ابن حجر في الدرر: وقرأ بنفسه ونسخ سنن أبي داود وحصل الأجزاء. ونظر في الرجال والعلل. وتفقه، وتمهّر، وتقدّم، وصنّف، ودرّس، وأفتى، وفاق الأقران، وصار عجبًا في سرعة الاستحضار وقوة الجنان والتوسع في المنقول والمعقول، والاطلاع على مذاهب السلف والخلف انتهى.

وأقول: أنا لا أعلم بعد ابن حزم مثله! وما أظنه سمح الزمان ما بين عصر الرجلين بمن شابههما أو يقاربهما. قال الذهبي ما ملخصه: (كان يقضي منه العجب إذا ذكر مسألة من مسائل الخلاف التي يوردها منه. ولا أشد استحضارًا للمتون وعزوها منه. وكانت السنة نصب عينيه وعلى طرف لسانه بعبارة رشيقة وكان آية من آيات الله في التفسير والتوسع فيه. وأما أصول الديانة ومعرفة أقوال المخالفين فكان لا يشق غباره. فيه هذا؛ مع ما كان عليه من الكرم والشجاعة، والفراغ عن ملاذ النفس. ولعل فتاويه في الفنون تبلغ ثلاثمائة مجلد، بل أكثر. وكان قوالاً بالحق، لا تأخذه بالله لومة لائم) ثم قال: (ومن خالطه وعرفه قد ينسبني إلى التقصير فيه. ومن نابذه وخالفه قد ينسبني إلى التغالي فيه. وقد أوذيت من الفريقين من أصحابه وأضداده وكان أبيض، أسود الرأس واللحية قليل الشيب. شعره إلى شحمة أذنيه، كأنَّ عينيه لسانان ناطقان، ربعة من الرجال، بعيد ما بين المنكبين، جهوريّ الصوت، فصيحًا سريع القراءة. تعتريه حدة لكن يقهرها بالحلم) قال: ولم أرَ مثله في ابتهاله واستعانته بالله وكثرة توجهه.

وأنا لا أعتقد فيه عصمة بل أنا مخالف له في مسائل أصلية وفرعية؛ فإنه كان مع سعة علمه، وفرط شجاعته وسيلان ذهنه وتعظيمه لحرمات الدين بشرًا من البشر، تعتريه حدة في البحث وغضب وصدمة للخصوم، تُزرع له عداوة في النفوس. ولولا ذلك لكان كلمة إجماع فإن كبارهم خاضعون لعلومه، معترفون بأنه بحر لا ساحل له، وكنز ليس له نظير. ولكن ينقمون عليه أخلاقًا وأفعالاً. وكل أحد يؤخذ من قوله ويترك. قال وكان

---

(١) ترجمته في الوافي بالوفيات ٧/ ١٥ وفي الشذرات ٦/ ٨٠.

(٢) في الشذرات ٦/ ٨٠: ولد بحران يوم الاثنين ١٠ ربيع الأول ٦٦١ هـ.

محافظًا على الصلاة والصوم، معظِّمًا للشرائع ظاهرًا وباطنًا، لا يؤتى من سوء فهم؛ فإنَّ له الذكاء المفرط، ولا من قلة علم فإنه بحر زاخر ولا كان متلاعبًا بالدين ولا ينفرد بمسائل بالتّشهِّي ولا يطلق لسانه بما اتفق، بل يحتج بالقرآن والحديث والقياس ويبرهن ويناظر أسوة بمن تقدمه من الأئمة. فله أجر على خطئه وأجران على إصابته. انتهى. ومع هذا فقد وقع له مع أهل عصره قلاقل وزلازل. وامتحن مرة بعد أخرى في حياته.

وجرت فتن عديدة، والناس قسمان في شأنه فبعض منهم مقصر به عن المقدار الذي يستحقه بل يرميه بالعظائم. وبعض آخر يبالغ في وصفه ويجاوز به الحد، ويتعصب له كما يتعصب أهل القسم الأول عليه. وهذه قاعدة مطردة في كل عالم يتبحر في المعارف العلمية ويفوق أهل عصره ويدين بالكتاب والسنّة، فإنه لا بد أن يستنكره المقصرون، ويقع له معهم محنة بعد محنة. ثم يكون أمره الأعلىٰ وقوله الأولى، ويصير له بتلك الزلازل لسان صدق في الآخرين ويكون لعلمه حظ لا يكون لغيره وهكذا حال هذا الإمام، فإنه بعد موته عرف الناس مقداره، واتفقت الألسن بالثناء عليه إلا من لا يعتد به، وطارت مصنفاته واشتهرت مقالاته. وأول ما أنكر عليه أهل عصره في شهر ربيع الأول سنة ٦٩٨ أنكروا عليه شيئًا من مقالاته فقام عليه الفقهاء وبحثوا معه ومنع من الكلام. ثم طلب ثاني مرة في سنة ٧٠٥ إلى مصر فتعصب عليه بعض أركان الدولة. وهو(بيبرس الجاشنكير) وانتصر له ركن آخر وهو (الأمير سلار) ثم آل أمره أن حبس في خزانة البنود مدة ثم نقل في صفر سنة ٩[1] إلى الإسكندرية. ثم أفرج عنه وأعيد إلى القاهرة ثم أعيد إلى الإسكندرية. ثم حضر السلطان الناصر من الكرك فأطلقه، ووصل إلى دمشق في آخر سنة ٧١٢ وكان السبب في هذه المحنة أن مرسوم السلطان ورد على النائب بامتحانه في معتقده لما رفع إليه من أمور تنكر في ذلك، فعقد له مجلس في سابع رجب فسئل عن عقيدته، فأملى منها. ثم أحضروا العقيدة التي تعرف بالواسطية فقرأ منها. وبحثوا في مواضع ثم اجتمعوا في ثاني عشرة وقرروا الصفي الهندي يبحث معه. ثم أخروه وقدموا الكمال الزملكاني ثم انفصل الأمر على أنه أشهد على نفسه أنه شافعي المعتقد فأشاع أتباعه أنه انتصر فغضب خصومه ورفعوا واحدًا من أتباع ابن تيمية إلى الجلال القزويني نائب الحكم بالعادلية فعزّره، وكذا فعل الحنفي باثنين منهم.

وفي ثاني عشر رجب قرأ المزي فصلاً من كتاب أفعال العباد للبخاري في الجامع فسمع بعض الشافعية فغضب، وقال: نحن المقصودون بهذا ورفعوه إلى القاضي الشافعي فأمر بحبسه. فبلغ ابن تيمية فتوجه إلى الحبس فأخرجه بيده، فبلغ القاضي، فطلع إلى

(١) المقصود سنة ٧٠٩ هـ.

القلعة فوافاه ابن تيمية فتشاجرا بحضرة النائب. فأمر النائب من ينادي أن من تكلم في العقائد فعل به كذا وقصد بذلك تسكين الفتنة.

ثم عقد له مجلس في سلخ شهر رجب، وجرى فيه من ابن الزملكاني، وابن الوكيل مباحثة. فقال ابن الزملكاني لابن الوكيل ما جرى على الشافعية قليل، حيث تكون أنت رئيسهم، فظن القاضي ابن صصرى أنه يعرض به فعزل نفسه.

ثم وصل بريد من عند السلطان إلى دمشق أن يرسلوا بصورة ما جرى في سنة ٦٩٨ ثم وصل مملوك النائب وأخبر أن بيبرس والقاضي المالكي قد قاما في الإنكار على ابن تيمية، وأن الأمر قد اشتد على الحنابلة حتى صفع بعضهم. ثم توجه القاضي ابن صصرى، وابن تيمية صحبة البريد إلى القاهرة، ومعهما جماعة فوصلا في العشر الأخيرة من رمضان. وعقد مجلس في ثاني عشرينه بعد صلاة الجمعة فادعىٰ على ابن تيمية عند المالكي، فقال هذا عدوي ولم يجب عن الدعوىٰ، فكرّر عليه فأصرَّ. فحكم المالكي بحبسه، فأقيم من المجلس وحبس في برج. ثم بلغ المالكي أن الناس يترددون إليه. فقال: يجب التضييق عليه إن لم يقتل، وإلا فقد ثبت كفره. فنقلوه ليلة عيد الفطر إلى الجب. ولقد أحسن المترجم له رحمه الله بالتصميم على عدم الإجابة عند ذلك القاضي الجريء الجاهل الغبي، ولو وقعت منه الإجابة لم يبعد الحكم بإراقة دم هذا الإمام الذي سمح الزمان به، وهو بمثله بخيل. ولا سيما هذا القاضي من المالكية الذي يقال له ابن مخلوف، فإنه من شياطينهم المتجرئين على سفك دماء المسلمين بمجرد أكاذيبَ وكلماتٍ ليس المراد بها ما يحملونها عليه، وناهيك بقوله أن هذا الإمام قد استحق القتل وثبت لديه كفره ولا يساوي شعرة من شَعَرَاتِهِ بل لا يصلح لأن يكون شسعًا لنعله. وما زال هذا القاضي الشيطان يتطلب الفرص التي يتوصل بها إلى إراقة دم هذا الإمام، فحجبه الله عنه، وحال بينه وبينه والحمد لله رب العالمين. ثم بعد هذا نودي بدمشق أن من اعتقد عقيدة ابن تيمية حلَّ دمهُ وماله، خصوصًا الحنابلة فنودي بذلك، وقرىء المرسوم. قرأه ابن الشّهاب محمود في الجامع. ثم جمعوا الحنابلة من الصالحية وغيرها وأشهدوا على أنفسهم أنهم على معتقد الإمام الشافعي، وكان من أعظم القائمين على المترجم له الشيخ نصر المنبجي لأنه كان بلغ ابن تيمية، أنه يتعصب لابن العربي، فكتب إليه كتابًا يعاتبه على ذلك فما أعجبه، لكونه بالغ في الحط على ابن العربي وكفَّرَهُ. فصار هو يحط على ابن تيمية ويغري بيبرس الذي يفرط في محبة نصر وتعظيمه وقام القاضي المالكي المتقدم ذكره مع الشيخ نصر وبالغ في أذية الحنابلة، واتفق أن قاضي الحنابلة كان قليل البضاعة في العلم فبادر إلى إجابتهم في المعتقد واستكتبوا خطه بذلك. واتفق

أن قاضي الحنفية بدمشق وهو شمس الدين ابن الجريري انتصر لابن تيمية وكتب في حقه محضرًا بالثناء عليه بالعلم والفهم، وكتب فيه بخطه ثلاثة عشر سطرًا، من جملتها أنه منذ ثلثمائة سنة ما رأى الناس مثله فبلغ ذلك ابن مخلوف فسعى في عزل ابن الجزري فعُزِل وقُرِّرَ عوضه شمس الدين الأذرعيّ، ثم لم يلبث الأذرعيّ أن عُزِلَ في السنة المقبلة. وتعصَّبَ سلَّار لابن تيمية وأحضر القضاة الثلاثة الشافعي والمالكي والحنفي، وتكلم معهم في إخراجه فاتفقوا على أنهم يشترطون فيه شروطًا. وأن يرجع عن بعض العقيدة فأرسلوا إليه مرات. فامتنع من الحضور إليهم، واستمر على ذلك ولم يزل ابن تيمية في الجب إلى أن تشفع فيه مهنّا أمير آل فضل فأخرج في ربيع الأول في الثالث والعشرين منه. وأُحضِرَ إلى القلعة ووقع البحث مع بعض الفقهاء فكتب عليه محضر بأنه قال: أنا أشعري.

ثم اجتمع جماعة من الصوفية عند تاج الدين بن عطاء فطلعوا في العشر الأوسط من شوال إلى القلعة وشكوا من ابن تيمية أنه يتكلم في حق مشايخ الطريقة، وأنه قال لا يستغاث بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم، فاقتضى الحال أن أمر بتسييره إلى الشام فتوجه على خيل البريد، وكل ذلك والقاضي زين الدين ابن مخلوف مشتغل بالمرض. وقد أشرف على الموت فبلغه سير ابن تيمية، فراسل النائب، فرده من نابلس، وادّعي عليه عند ابن جماعة وشهد عليه شرف الدين ابن الصابوني.

وقيل إن علاء الدين القونوي شهد عليه أيضًا، فاعتقل بسجن حارة الديلمة في ثامن عشر شوال، إلى سلخ شهر صفر سنة ٧٠٩ فنقل عنه أن جماعة يترددون إليه وأنه يتكلم عليهم في نحو ما تقدم، فأمر بنقله إلى الإسكندرية فنقل إليها في سلخ صفر. وكان سفره صحبة أمير مقدم ولم يمكِّن أحدًا من جهته من السفر معه. وحُبِسَ ببرج شرقي. ثم توجه إليه بعض أصحابه فلم يُمْنَعُوا منه، فتوجهت طائفة منهم بعد طائفة وكان موضعه فسيحًا، فصار الناس يدخلون إليه ويقرأون عليه ويبحثون معه. فلم يزل إلى أن عاد الناصر إلى السلطنة، فشفع فيه عنده. فأمر بإحضاره فاجتمع به في ثامن عشر شوال سنة ٧٠٩ فأكرمه وجمع القضاة فأصلح بينه وبين القاضي المالكي. فاشترط المالكي أن لا يعود. فقال له السلطان قد تاب.

وسكن القاهرة وتردد الناس إليه إلى أن توجه صحبة الناصر إلى الشام بنية الغزو سنة ٧١٢ فوصل إلى دمشق. وكانت غيبته منها أكثر من سبع سنين، وتلقاه جمع كثير فرحًا بمقدمه. وكانت والدته إذ ذاك حية ثم قاموا عليه في شهر رمضان سنة ٧١٩ بسبب

قوله أن الطلاق الثلاث من دون تخلل رجعة بمنزلة طلقة واحدة.

ثم عقد له مجلس آخر في رجب سنة ٧٢٠ ثم حُبِسَ بالقلعة، ثم أُخرِجَ في عاشوراء سنة ٧٢١ ثم قاموا عليه مرة أخرى في شعبان سنة ٧٢٢ بسبب مسألة الزيارة. واعتقل بالقلعة فلم يزل بها إلى أن مات في ليلة الاثنين، لعشرين من شهر القعدة سنة ٧٣٨ بجامع دمشق. وصار يُضْرَبُ المثلُ بكثرة من حضر جنازته وأقل ما قيل في عددهم أنهم خمسون ألفًا. قال ابن فضل الله: لما قدم ابن تيمية على البريد إلى القاهرة في سنة ٧٠٠ حض أهل المملكة على الجهاد وأغلظ القول للسلطان والأمراء. ورتبوا له كل يوم دينارًا وطعامًا فلم يقبل ذلك. ثم قال: حضر عنده شيخنا أبو حيان فقال: ما رأت عيناي مثل هذا الرجل! ومدحه بأبيات ذكر أنه نظمها بديهة منها:

لما أتانا تقي الدين لاحَ لنا داعٍ إلى الله فردٌ ماله وزرُ
على محياهُ سيماءُ الأولىٰ صحبوا خير البريةِ نورٌ دونهُ القمرُ

قال: ثم دار بينهما كلام، فجرى ذكر سيبويه فأغلظ ابن تيمية القول في سيبويه، فنافره أبو حيان وقطعه وصير ذلك ذنبًا لا يغفر. وسئل عن السبب فقال: ناظرته في شيء من العربية فذكرت له كلام سيبويه. فقال: ما كان سيبويه نبيّ النحو ولا كان معصومًا، بل أخطأ في الكتاب في ثمانين موضعًا، ما تفهمها أنت. فكان ذلك سبب مقاطعته إياه. وذكره في تفسيره البحر بكل سوء، وكذلك في مختصره النهر. وقد ترجم له جماعة وبالغوا في الثناء عليه، ورثاه كثير من الشعراء، وقال جمال الدين السرمدي في أماليه: ومن عجائب زماننا في الحفظ ابن تيمية كان يمر بالكتاب مرة مطالعة، فينقش في ذهنه، وينقله في مصنفاته بلفظه ومعناه.

وحكى بعضهم عنه أنه قال: من سألني مستفيدًا حققت له. ومن سألني متعنتًا ناقصته. فلا يلبث أن ينقطع فأكفى مؤنته. وقد ترجم له الصفدي وسرد أسماء تصانيفه في ثلاثة أوراق كبار. ومن أنفعها كتابه في (إبطال الحيل) فإنه نفيس جدًا و (كتاب المنهاج في الرد على الروافض) في غاية الحسن لولا أنه بالغ في الدفع حتى وقعت له عبارات وألفاظ فيها بعض التحامل، وقد نسبه بعضهم إلى طلب الملك. لأنه كان يلهج بذكر (ابن تومرت) ونظرائه، فكان ذلك مولدًا لطول سجنه.

وله وقائع مشهورة. وكان إذا حوقق وألزم، يقول: لم أرد هذا وإنما أردت كذا فيذكر احتمالاً بعيدًا ولعل ذلك ـ والله أعلم ـ أنه يصرح بالحق فتأباه الأذهان، وتنبوا عنه الطبائع لقصور الأفهام، فيحوله إلى احتمال آخر دفعًا للفتنة. وهكذا ينبغي للعالم الكامل، أن يفعل، يقول الحق كما يجب عليه ثم يدفع المفسدة بما يمكنه. وحكي عنه

أنه لما وصل إليه السؤال الذي وضعه السكاكيني على لسان يهودي وهو:

أيا علماءَ الدينِ ذميٌّ دينكمْ تحيَّر دلُّوه بأعظمِ حجةِ
إذا ما قضىٰ ربي بكفري بزعمكمْ ولم يرضِه مني فما وجهُ حيلتي

إلى آخرها. فوقف ابن تيمية على هذه الأبيات، فثنى إحدى رجليه على الأخرى، وأجاب في مجلسه قبل أن يقوم بمائة وتسعة عشر بيتًا أولها:

سؤالكَ يا هذا سؤالَ معاندِ مخاصمِ ربُّ العرش ربُّ البريةِ

وقال ابن سيِّد الناس اليعمري في ترجمة ابن تيمية: إنه برز في كل فن على أبناء جنسه، ولم ترَ عين من رآه مثله؛ ولا رأت عينه مثل نفسه. وقال الذهبي مترجمًا له في بعض الإجازات: قرأ القرآن والفقه، وناظر واستدل وهو دون البلوغ، وبلغ في العلوم والتفسير وأفتى ودرّس، وهو دون العشرين وصنّف التصانيف وصار من أكابر العلماء في حياة مشائخه. وتصانيفه نحو أربعة آلاف كراسة وأكثر. وقال: وأما نقله للفقه ومذاهب الصحابة والتابعين، فضلاً عن المذاهب الأربعة فليس له فيه نظير. وقال: إنه لا يذكر مسألة إلا ويذكر فيها مذاهب الأئمة وقد خالف الأئمة الأربعة في عدة مسائل، صنَّف فيها واحتج لها بالكتاب والسنّة. وقد أثنى عليه جماعة من أكابر علماء عصره فمن بعدهم. ووصفوه بالتفرد، وأطلقوا في نعته عبارات ضخمة وهو حقيق بذاك.

والظاهر أنه لو سَلَّمَ مما عُرِضَ له من المحن المستغرقة لأكثر أيامه، المكدرة لذهنه، المشوشة لفهمه، لكان له من المؤلفات والاجتهادات ما لم يكن لغيره.

قال الصفدي: وكان كثيرًا ما ينشد:

تموتُ النفوسُ بأوصابها ولم يدر عوادها ما بها
وما أُنصِفتْ مهجةٌ تشتكي أذاها إلى غيرِ أربابها

ومما أنشد له على لسان الفقراء:

والله ما فقرنا اختيار وإنما فقرنا اضطرارُ
جماعةٌ كلنا كسالىٰ وأكلنا ما له عيارُ
تسمعُ منا إذا اجتمعنا حقيقة كلها فشارُ

٤١ ـ **أَحْمَد بن عبد الرَّحِيم بن الحُسَين بن عَبْد الرحمٰن بن إبراهيم بن أبي بكر بن إبراهيم الولي بن الزين العراقي**[١]: الآتي أبوه إن شاء الله تعالى. ولد[٢] في سحر يوم

(١) ترجمته في الشذرات ٧/ ١٧٣.

(٢) في الشذرات: ولد في ذي الحجة سنة ٧٦٢ هـ.